تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة

لأبى الريحان محمد بن احمد البيرونى

بقلم

الدكتور احمد محمود الساداتى

الأستاذ المساعد بكلية الآداب بجامعة القاهرة

كان العرب قبل الإسلام ، على معرفة غير قليلة بالهند وأحوالها عن طريق تجارهم الذين اضطلعوا بمقايضات منتجات تلك البلاد وحملوها فى مواخرهم من شاطئ الهند الغربى إلى جنوب الجزيرة العربية ، ولم تكن رحلة الشتاء والصيف التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم إلا إحدى رحلات هذه التجارة .

كذلك وقف العرب القدماء على جانب من حضارة الهند وما بها من ثقافات عن طريق المدارس العلمية الساسانية بأرض الفراتين وكان ينهض بالتدريس فيها حكماء الهنود واليونان . وعلى أيدى أطباء الهنود بمدرسة جند سابور نبغ من بين طلابها من العرب الحارث بن كلدة الثقفى حتى ذاعت شهرته ببلاد فارس .

وفتح المسلمون بلاد الشام ومصر وتوغلوا فى فارس شرقاً ، وتخطت جيوشهم شمال أفريقية إلى بلاد الأندلس فى الغرب . وبهمة القائد العربى الحجاج بن يوسف الثقفى استولى العرب على إقليم السند أواخر القرن الأول الهجرى يقودهم محمد بن القاسم الثقفى ، ولم يكن قد بلغ العشرين من عمره بعد ، ونزل بتلك الأراضى المفتوحة جموعاً من اليمنيين والقيسيين ممن كانوا بصحبته ، فلا يمضى قرن على ذلك الفتح حتى ينتشر الإسلام فى تلك الأصقاع على نطاق واسع ويظهر جيل من السنديين أنفسهم يحذقون العربية ويشتغلون بعلومها .

وبرغم توقف المسلمين عن المضى فى فتوحاتهم الهندية حتى القرن الرابع الهجرى ، وعلى صغر الرقعة المفتوحة من الأرض ، فقد جنت الثقافة الإسلامية مكاسب عظيمة فى مختلف فنون المعرفة باتصالها بالهند من جديد حتى ليقول بحق المؤرخ E. B. Havell فى كتابه (History of the Aryan Rule in India, pp. 254–56) بأن المسلمين مدينون للهنادكة أولا — لا لليونان — بكثير مما وصلهم من ألوان الثقافة الجديدة فى فجر حياتهم . ويؤيد رأيه هذا أن أول كتب فى الفلك والرياضيات والطب حملت إلى بلاط الخلافة فى بغداد وذلك أيام المنصور العباسى ، كانت هندية . ثم جاء البرامكة ، وكان آباؤهم سدنة بوذيين فى الغالب ، فعنوا بأمر الهند فى دولة العرب ، وأحضروا علماء طبها وحكمائها ، على حد قول صاحب الفهرست ، ورعوا حركة ضخمة لنقل تراث الهند إلى العربية ، لتبلغ الدراسات الهندية من بعد ذلك إلى أكمل وأوفى صورها عند أبى الريحان البيرونى أعظم علماء عصره

بلا شبهة ، بعد أن جاب الهند سنين طويلة وحذق لغتها ، وخالط أهلها ، واستمع إلى بيان معارفهم من أفواه علمائهم ، وغاص فى بطون متونهم ، ليخرج على الناس من بعد ذلك بأول وأوفى ما كتب عنهم ، بلسان عربى مبين ، وليكون كتابه هذا ، موضوع مقالنا ، هو فيما بعد الوسيلة إلى إطلاع العالم كله على هذا التراث الإنسانى الزخار .

ويلف الغموض سنى حياة هذا العالم الأولى فلا نعرف شيئاً يذكر عن أسرته أو عن صباه وما تلقاه فى أول عهده بالتعليم . وكل ما تسعفنا المراجع به أنه ولد فى ذى الحجة من عام ٣٦٢ هـ (سبتمبر ٩٧٣ م) بظاهر مدينة خوارزم (بيرون ، فارسى = ظاهر خارج ، عربى) باقليم خوارزم وهو خيوه الحالية . وقد أخطأ بعض من كتبوا عنه ، مثل ابن أبى أصيبعة والشهرزورى ، فنسبوه إلى بيرون (بارن القديمة) بالسند .

ويستبين كذلك من رسالته ، الفهرست ، فى بيان مقالاته وكتبه، أنه اتصل بثلاثة من أشهر علماء عصرهم كتبوا له باسمه جملة مقالات فى العلوم الطبيعية والرياضة والفلك فأناروا له بذلك طريق البحث ومهدوا له سبيل الصنعة ، وهم : أبو نصر منصور على بن عراق وأبو سهل عيسى بن يحيى المسيحى وأبو على الحسن بن على الجبلى .

والمعروف أن البيرونى رحل عن موطنه إلى الرى وهو فى العشرين من عمره ، ومنها قصد إلى جرجان حيث التقى بأستاذه الطبيب المنجم أبى سهل المسيحى . وفى رعاية أمير جرجان الزيارى قابوس بن وشمكير بدأ البيرونى التأليف ، وكتب باسم هذا الأمير كثيراً من المقالات والكتب . وفى مدة حكم هذا الأمير الثانية بعد عودته إلى بلاده (٣٨٨ — ٤٠٣ هـ) كتب البيرونى باسمه كتابه الكبير ، «الآثار الباقية عن القرون الخالية» وفيه يتناول تواريخ كافة الأمم والشعوب وحساب السنين عندهم مع ذكر أعيادهم ، وقد نشره المستشرق ادوارد ساخاو فى طبعات متعددة ، ويقع فى ٣٦٢ صفحة من القطع الكبير . وقد كتبه مؤلفه وهو فى التاسعة والعشرين من عمره وزاد فيه فيما بعد على ما سوف نشير إليه .

هذا ويشير المؤرخ أبو الفضل البيهقى فى تاريخه الفارسى ، الذى كتبه للسلطان مسعود الغزنوى ، إلى كتاب المسامرة فى أخبار خوارزم للبيرونى . ولولا ضياع هذا الكتاب لوقفنا على الكثير من سيرة هذا العالم الذى نكتب عنه .

ومن عبارة البيهقى التى نقلها عن هذا الكتاب يثبت لدينا أن البيرونى قد عاد إلى خوارزم عام ٤٠١ هجرية ، إذ يقول أنه قضى سبع سنين فى خدمة أبى العباس المأمون بن المأمون آخر أمراء دولة المأمونيين ، وقد سقط على هذا الأمير بعض جنده عام ٤٠٧ هـ وقتلوه ، ليسارع عند ذلك صهره السلطان محمود الغزنوى بدخول خوارزم والانتقام من قتلته ويضم البيرونى إلى حاشيته .

وينقل البيهقى كذلك عن كتاب المسامرة ما يفيد بأن أبى الريحان البيرونى كان على صغر سنه موضع توقير وإجلال بخوارزم .

«حكى أبو الريحان أن خوارزمشاه ركب ذات يوم وكان ثملا فاقترب من حجرتى وأمر بمناداتى فتمهلت ، فأسرع بحصانه حتى باب حجرة نوبتى وأراد أن يترجل ، فقبلت الأرض وأقسمت أغلظ الإيمان حتى لا يفعل ، فقال «العلم من أشرف الولايات يأتيه كل الورى ولا يأتى» ثم قال «لولا الرسوم الدنيوية لما استدعيتك فالعلم يعلو ولا يُعلى» .

«ولعله قد طالع أخبار المعتضد أمير المؤمنين ، إذ قرأت فيها أن المعتضد كان يوماً فى البستان وكان يمسك

بيده ثابت بن قره ويسير معه ، وفجأة سحب يده ، فسأله ثابت : لماذا سحبت يدك يا أمير المؤمنين . فقال « كانت يدى فوق يدك والعلم يعلو ولا يعلى « والله أعلم بالصواب » .

(الترجمة العربية لتاريخ البيهقى ليحيى الخشاب وصادق نشأت ، القاهرة ١٩٥٦ ص ٧٣٤ — ٧٣٦) .

كذلك كان البيرونى محل ثقة شاه خوارزم الكاملة وموضع سره ، حتى عهد إليه بأن يستقبل رسول أمير المؤمنين القادر بالله فى منتصف الطريق إليه ويتسلم منه فى السر الخلع التى بعث بها إليه ويكتم خبرها ، إذ خاف أن يقف على أمرها السلطان محمود الغزنوى ويكتشف أن الأمير قد حصل عليها دون وساطته هو وشفاعته عنه فيغضب عليه وكان يخشاه أشد الخشية .

وتختلف الروايات عن أول اتصال هذا العالم بالسلطان محمود الغزنوى ، فمنها ما يقول بأن شاه خوارزم كان قد بعث به فى سفارة إلى محمود ومنها ما يقول بأن محمودا كان قد سأل صهره الخوارزمى أن يبعث إليه بأعلام بلاطه الأربعة وهم : أبو سهل المسيحى والبيرونى وأبو الخير وابن سينا . والمعروف أن أبا سهل وابن سينا كانا قد غادرا خوارزم قبل قدوم رسل محمود ، على أن ابن سينا لم يكن ليقبل بأية حال السير إلى غزنة ، ومحمود يعلم عنه ضعف العقيدة ، فضلا عما كان بينه وبين البيرونى من خصومة فى العلم شديدة مشهورة . وفى بلاط محمود التقى البيرونى بجملة من فلاسفة عصره وأدبائهم .

ولئن كانت المراجع تضن علينا بالتفصيل فى مثل هذه المواضع الخاصة من سيرة البيرونى ، إلا أنها تطلعنا فى الوقت نفسه اطلاعاً واسعاً على نشاطه العلمى الملحوظ وما أثمر من مؤلفات كثيرة العدد غزيرة المادة بلغ بها إلى أن صار من أعظم العلماء فى عصره ومن بعد عصره .

درس الرياضيات والفلك والطب ولم يقتصر على التأليف فيها وحسب بل وتناول كذلك الآداب والتاريخ واضطلع بتدوين أخبار الأمم وتواريخ العلوم .

* * *

دفع البيرونى حرصه على سلامة منهجه العلمى إلى اتقان جملة من اللغات ومنها اليونانية والسنسكريتية فضلا عن الفارسية . فلقد كان يلتزم الرجوع إلى المصادر الأصلية فيما يكتب التزاماً صارماً تراه واضحاً جلياً فى كل ما كتب بلا استثناء . فها هو يتحدث عن تاريخ الطب عند اليونان فيذكر كبارهم من أمثال غورس وأبقراط وجالينوس وأسقليبوس ، حتى تمنعه ضعف الروايات التى بين يديه من المضى فى الحديث عن تلاميذهم حيث يقول « ولنضع فى هذا الجدول ما فى مقالة اسحق من غير أن نذكر تلامذتهم فلا فائدة فيه إذ لم ننقله عن خط سريانى أو يونانى يعطينا أماناً من التصحيف » .

وهو ، بعد ، فى قراءته لما يقع فى يده من الكتب يحرص كل الحرص على التثبت مما ورد فيها ، فها هو يريبه بعض ما يرويه أبو بكر بن زكريا الرازى عن مانى فلا تقعد به همته حتى يحصل على هذا الكتاب الذى أشار إليه صاحبه بعد أربعين سنة من البحث والاستقصاء ليعلن عند ذلك ، بانصاف العلماء ، أن الرازى قد خدع بما اطلع عليه وأنه هو نفسه ليس بخادع .

« ذلك أنى طالعت كتابه (أى الرازى) فى العلم الإلهى ، وهو يبادئ فيه بالدلالة على كتب مانى وخاصة كتابه الموسوم بسفر الأسرار . . . فحرضتنى الحداثة بل خفاء الحقيقة على طلب تلك الأسرار من معارفى فى البلدان والأقطار ، وبقيت فى تباريح الشوق نيفاً وأربعين سنة إلى أن قصدنى بخوارزم بجند من همذان متوسل بكتب وجدها . . . . وفيها مصحف قد اشتمل من كتب المانويه على . . . . ومن جملتها طلبتى سفر

الأسرار فغشيني له من الفرح ما يغشى الظمآن من رؤية الشراب . . . ثم اختصرت ما فى السفر من الهذيان البحت والهجر المحض ليطالعها مأووف بآفتى وسيعجل الشفاء منها ، فهذه حال أبى بكر (الرازى) ولست أعتقد فيه مخادعة بل انخداعاً لما يعتقده هو فيمن نزههم الله عن ذلك ولم يبخس حظه فيما رامه فالأعمال بالنيات وكفى بنفسه يومئذ عليه حسيباً » .

ولئن كان أسلوبه فى الكتابة لا تغلب السلاسة والسهولة عليه إلا أن الغموض لا يلفه ، وتراه ينفذ وشيكاً بعباراته القصيرة إلى لب الموضوع الذى يعالجه . وهو لا يتردد فى أن يعلن صراحة بأنه إنما يكتب فقط للخاصة من العلماء الذين يفرض فيهم الإحاطة التامة بمعارف عصره حتى جاءت المثالات فيها على النزر « إنى أخلى تصانيفى عن المثالات ليجتهد الناظر فيها ما أودعته فيها من كان له دراية واجتهاد وهو محب للعلم . ومن كان من الناس على غير هذه الصفة فلست أبالى فهم أم لم يفهم (ساخاو = مقدمة الآثار الباقية ص ٧٠) .

وأدى به نهجه هذا مع ميله الشديد إلى الجدل والمناظرة وما كان يصطنعه فيها من أسلوب ساخر عنيف إلى أن تعرض بذلك لمخاصمة كثيرين له فى زمانه وبعد زمانه ، حتى كان من كتاب التراجم من سكت عن الإشارة إليه ولو بكلمة واحدة ، ومنهم ابن خلكان .

وفى عصرنا هذا نرى أعلام المستشرقين يصفونه بأنه كان بطليموس عصره ويقررون أنه فاق كل علماء زمانه بمعرفته الواسعة العميقة فى الرياضيات والفلك وتقويم البلدان ، فضلا عما كان يتمتع به من قريحة نفاذة وما كان يصدر عنه من اتجاهات نقدية تشبه إلى حد كبير تلك التى عرفتها أوروبا فى عصورها الحديثة (مقدمة الآثار الباقية لساخاو) .

مقالات البيرونى وكتبه

كفى البيرونى الباحثين مشقة حصر مؤلفاته حين اضطلع هو نفسه باثبات غالبيتها الغالبة فى رسالته المعروفة بالفهرس : « أسماء الكتب التى اتفق لى عملها سنة سبع وعشرين وأربعمائة وقد تم من عمرى خمس وستون سنة قمرية وثلاث وستون سنة شمسية » . وهو يقدم لها بحديث ناقد يستعرض فيه كتب أبى بكر الرازى وآرائه .

ويبدأ فهرسه هذا بذكر ثمانى عشرة مقالة له أغلبها فى الفلك ، ومن بينها كتاب الوساطة بين أبى الحسن الأهوازى والخوارزمى ويقع فى ٦٠٠ ورقة وجوامع الموجود لخواطر الهنود فى حساب التنجيم وقد أتم منه ٥٥٠ ورقة .

ثم يصنف لنا من بعد ذلك أغلب مؤلفاته هذه فى تسعة أبواب هى :

١ ــ أطوال البلاد وعروضها ، وفيه خمس عشرة رسالة .

٢ ــ الحساب ، وفيه ثمان رسائل .

٣ ــ الشعاعات والممر ، وفيه أربع رسائل .

٤ ــ الآلات والعمل بها ، وفيه خمس رسائل .

٥ ــ الأزمنة والأوقات ، وفيه خمس رسائل .

٦ ــ المذنبات والذوائب ، وفيه خمس رسائل .

٧ ــ تحقيق منازل القمر ، وفيه كتاب واحد يقع فى ١٨٠ ورقة .

(ثم يذكر من بعد ذلك عشر مقالات فى خواص المعادن والهندسة والطبيعة والفلك) .

٨ ــ التنجيم وفيه ست رسائل .

٩ ــ ما يجرى مجرى الأحماض من الهزل والسخف وهى اثنتا عشرة رسالة مما نقلها عن الآداب الفارسية والهندية كحديث قسيم السرور وعين الحياة ، وحديث

صنمى الامبان ، أو ما تصدى فيه لدراسة أشعار العرب كقافية الألف من الاتمام فى شعر أبى تمام .

١٠ ــ العقائد ، ويشمل على كتاب واحد هو : تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة للعقل أو مرذولة ويقع فى ٧٠٠ ورقة .

ويذكر من بعد ذلك خمسة كتب أخرى من بينها كتاب پاتنجل الذى نقله عن السنسكريتية وأفاد منه فى تأليف كتابه القانون المسعودى .

ويشير البيرونى من بعد ذلك إلى جملة كتب ورسائل له ذهبت عنه نسخها وسوادها . ويختم بيان كتبه هذا بالإشارة إلى كتب عشرة ورسائل أخرى لم يكن قد انتهى بعد منها ، ومنها القانون المسعودى والآثار الباقية عن القرون الخالية . وهذا الكتاب الأخير كان قد كتبه للأمير الزيارى قابوس بن وشمكير ثم ما فتىء يضيف إليه كل ما يقع فى يده من مادته .

وما إن يفرغ من سرد ذلك كله حتى يفصح عن نيته فى كتابة مقالات أخرى وترجمة كتب الهند بعون من الله لو تأخر الأجل وسلمت الحواس وصح البدن .

والبيرونى شديد الاعتداد بكل ما كتب حتى ما صنعه فى شبابه منه ، ولا يفوته أن يؤكد ذلك فى فهرسه حيث يقول : « ويجب عليك أن تعلم فيما عددته من كتبى مما عملته فى حداثتى وازدادت المعرفة بفنه بعد ذلك فلم أطرحه أو استرذله فانها جميعاً أبنائى والأكثر بابنه وشعره مفتون . . . » .

ولا يسكت البيرونى عند بيان كتبه ومقالاته هذه حتى يذكر من بعد ذلك ما كتبه باسمه أساتذته الثلاثة أبو نصر بن عراق وأبو سهل بن يحيى المسيحى وأبو الحسن بن على الجيلى وهى أربع وعشرون رسالة فى مختلف نواحى المعرفة يقول عنها « إنها بمنزلة الربائب فى الحجور والقلائد على النحور لا أميز بينها وبين الأنهار » .

وتوفى أبو الريحان البيرونى فى رجب من عام ٤٤٠ هـ ديسمبر ١٠٤٨ م أى بعد مضى ثلاث عشرة سنة على تحريره لبيان كتبه هذا . وفى هذه السنوات كتب عشرات الرسائل الأخرى فبلغ بذلك عدد ما أمكن حصره من مؤلفاته جميعها ما يقرب من مائة وخمسين كتاباً ، أغلبها يتراوح عدد أوراقه بين المائتين والسبعمائة ورقة .

ويُجمع الشهرزورى فى كتابه نزهة الأرواح فى تاريخ الحكماء ، وياقوت الحموى فى الجزء السادس من معجمه وغيرهما على أن البيرونى كان « لا يكاد يفارق يده القلم وعينه النظر وقلبه الفكر إلا فى يومى النيروز والمهرجان من السنة لإعداد ما يمس الحاجة إليه فى المعاش من بلغة الطعام وعلقة الرياش » .

ويذكر هؤلاء كذلك أن السلطان مسعود الغزنوى كافأ البيرونى على كتابه القانون المسعودى بثلاثة جمال تنوء بأحمالها من الفضة ، فردها أبو الريحان واعتذر إليه عن قبولها بقوله « إنما يخدم العلم للعلم لا للمال » .

وقد جمع ظهير الدين أبو الحسن البيهقى من رجال القرن السادس (وهو غير البيهقى المؤرخ) جملة من مأثور أقوال أبى الريحان ضمنها كتاب تاريخ حكماء الإسلام (تحقيق محمد كرد على بدمشق ١٩٤٦) .

كتاب تحقيق ما للهند

غزا محمود الغزنوى الهند سبع عشرة مرة خلال سبعة وعشرين عاماً ، ابتداء من عام ٣٩١ هـ - ١٠٠٠ م وأعجب بتلك البلاد حتى فكر فى الإقامة الدائمة بها . وظل أبناؤه يحكمون هناك قرابة قرنين من الزمان .

وبفتح محمود الجدىّ لهذه البلاد يبدأ دور الحكم الإسلامى فيها وهو أظهر أدوار الهند التاريخية على الاطلاق ، وقد انتهى بضم البريطانيين تلك البلاد إلى مستعمراتهم منتصف القرن الماضى .

ويتجلى مظهر الإسلام بطبيعته ، كدين ومدنية ، واضحاً مشرقاً عند ذلك الفاتح الغزنوى حين كان يجالد بعسكره جند الهند فى حومة القتال ويناظر بعلمائه براهمتهم فى حلقات الدرس ومعه أبو الريحان البيرونى العالم بالسنسكريتية وآدابها

ولقد صاحب البيرونى محمود ثلاث عشرة مرة فى غزواته الهندية أتيح له فيها أن يحيط بعلوم الهند ويقرأ أسفارها ويخالط علماءها ، حتى إذا ما اطمأن إلى ما وقف عليه من مختلف فنون المعرفة عندهم وعرف بتقاليدهم ورسومهم وألم بمناهجهم فى البحث وطرائقهم فى إعمال الفكر ، خرج يعرض علينا فى سفره الكبير — موضوع مقالنا — حضارة الهند ومدنيتها عرضاً شاملا يتميز بدراساته النقدية العميقة المستفيضة .

والكثير مما يضمه هذا الكتاب من المعلومات القيمة لم يكن بالجديد على المسلمين فى ذلك الوقت فحسب ، بل لقد كان كذلك حتى بالنسبة للثقافة الأوربية فى العصور الحديثة على ما يشير إليه المستشرق الألمانى ادوارد ساخاو فى الصفحة الرابعة من المقدمة القيمة التى صدر بها هذا الكتاب حين نهض بتحقيقه ونشره أواخر القرن الماضى .

ولقد سبق البيرونى إلى وصف الهند سفير إغريقى ، وحاجان بوذيان من الصين .

أما السفير اليونانى فهو ميغاستين الذى بعث به سلوكس الأول عام ٣٩٥ ق . م إلى چندر اكُبتا مؤسس دولة الموريا ، بعد جلاء الإسكندر عن الهند ، يسأله تحويل مجرى التجارة الهندية من الطريق البحرى الذى يؤدى إلى البحر الأحمر فمصر ، إلى الطريق البرى عبر إيران والعراق والشام وكانت من أراضيه . ولم يبق لنا من وصف هذا السفير للهند إلا مقتطفات قليلة تشير إلى ازدهار الحضارة الهندية

(Cambridge Hist. of India 348, 467)

أما الحاجان الصينيان فهما فاهيان وهيون سانغ وقد قدما الهند فى القرنين الخامس والسابع الميلاديين على التوالى . وفى مذكراتهما وصف شيق لبلاط ملوك الهند وما كان به من فلاسفة وشعراء ، وما كان بتلك البلاد من جامعات ومنها جامعة تكسيلا المشهورة (الهند وجيرانها لول ديورانت ترجمة زكى نجيب محمود)

ويقرر الأستاذ بيلر (Buehler : Truebner's Record 1885 August, p. 63) بحق أن ما كتبه هؤلاء هو أشبه بما يكتب للصغار ، فلا يقارن بما صنفه البيرونى فى ذلك .

وما يتميز به البيرونى عن هؤلاء ، مجتمعين ، أنه لم يدرس طبيعة هذه البلاد وأحوال سكانها فحسب بل ودرس كذلك لغتها وآدابها فى مختلف بيئاتها ووقف بنفسه على رسومها وتقاليدها . وهو فيما يكتبه عنها يعتمد على ما شاهده بنفسه وسمعه بأذنيه أكثر مما يعتمد على ما قرأه « إنما صدق قول القائل ليس الخبر كالعيان لأن العيان هو إدراك عين الناظر عين المنظور إليه فى زمان وجوده وفى مكان حصوله » .

وهو ينظر فى ذلك كله بعقل الرياضى الفيلسوف العارف بمناهج البحث عند أرسطو وأفلاطون وبطليموس وجالينوس ، لمّاح فى نقده ، عميق فى بحثه ، معتدل فى قصده ، متحر للحقيقة التاريخية ما وسعه ذلك ، حتى ليرضى الهنادكة إلى اليوم عن كتابه هذا الذى أطلعهم عموماً على الكثير من سالف أمجادهم وأشاد فيه بمدنيتهم ، وإن اختلفوا معه فى بعض المسائل .

* * *

انتهى البيرونى من تأليف كتابه هذا فى المحرم من عام ٤٢٣ هـ — ١٠٣١ م ، أى بعد مرور عام ونصف عام على وفاة محمود الغزنوى الذى جاء به من خوارزم إلى غزنه وصحبه معه فى غزواته الهندية . وبهذا يكون البيرونى قد بلغ الثامنة والخمسين من عمره حين فرغ من كتابه هذا .

والغالب أنه كتبه على فترات ثم أملاه فى صورته الأخيرة بغزنه . هذا والمعروف أن محمود قد صحب معه جملة من المعماريين الهنود إلى قصبة ملكه ساهموا فى إقامة منشآته بها — وكذلك فعل تيمور لنك من بعده بأربعة قرون — ولا يستبعد أن يكون نفر من أطباء الهند وحكمائها قد صحبوه إلى غزنة كذلك . ومن المقرر أيضاً أن أعيان الهنود كانوا يقصدون بلاط الغزنويين وينخرطون فى سلك حاشيتهم .

ولقد بلغ البيرونى بدراسته للسنسكريتية ما لم يبلغه غيره من علماء عصره فى مجال التحقيق العلمى . ذلك أن كل من كان يشتغل بعلوم اليونان مثلا فى عصره ، ومنهم ابن سينا ، كانوا يعتمدون على الترجمات السريانية دون الأصول الأولى لها فى الغالب .

ويتحقق لدينا تمكنه التام من لغة الهند بشواهد متعددة ترد فى كتابه . فهو يقول فى ص ٩ « وهى تشابه العربية بتسمى الشىء الواحد فيها بعدة أسام ، مقتضية ومشتقة ، وبوقوع الاسم الواحد على عدة مسميات محوجة فى المقاصد إلى زيادة صفات . . . . وهى مركبة من حروف لا يطابق بعضها حروف العربية والفارسية بل لا تكاد ألسنتنا ولهاتنا تنقاد لإخراجها على حقيقة مخرجها . . . . ولا أيدينا فى الكتابة لحكايتها إلا بالاحتيال لضبطها بتغيير النقط والعلامات وتقييدها باعراب إما مشهور أو معمول » .

ويتكرر مثل ذلك عنده فى الصفحات ١٠ ، ١٢ ، ٨٢ ، ٢١١ . كما يلاحظ أنهم يعظمون الأسماء فى لغتهم بالتأنيث كما يعظمها العرب بالتصغير .

وثمة دليل آخر على تمكنه من هذه اللغة تراه حين يورد المصطلحات السنسكريتية الكثيرة وما يقابلها بالعربية مما يستنبطه لها على قاعدة رسمها « وذاكر من الأسماء والمواضعات فى لغتهم ما لا بد من ذكره مرة واحدة يوجبها التعريف ، ثم إن كان مشتقاً يمكن تحويله فى العربية إلى معناه لم أمِلْ عنه إلى غيره ، إلا أن يكون بالهندية أخف فى الاستعمال فنستعمله بعد غاية التوثقة منه فى الكتابة ، أو كان مقتضباً شديد الاشتهار فبعد الإشارة إلى معناه ، وإن كان له اسم عندنا مشهور فقد سهل الأمر » ص ١٣ .

ومن أمثلة ذلك ، بسيط الريح سپرس وهو الملموس ، وبسيط النار روپ وهو المبصر (ص ٢١) وجاتك أى المواليد (ص ٤٨) ، ونشيش أى صاحب الليل ، ودجيشفر صاحب البراهمة ، وشيتانس اي بارد الشعاع (ص ١٠٦) .

وهو بعد حريص كل الحرص على التثبت اليقين فى كل ما ينقل أو يقرأ فلا يتردد فى طلب إيضاح ما يغمض عليه أو يتشكك فى صحته ، « وربما وقع فى خلدى من جهة أرباب المكتب والأخبار أنهم أعرضوا عن الترتيب واقتصروا على ذكر الأسامى، وأن النساخ تجازفوا فان المعبرين لى بالترجمة كانوا ذوي قوة على اللغة وغير معروفين بالخيانة بلا فائدة » ص ١١٢ .

هذا والمعروف أنه ظهر بالهند ، نتيجة للفتح العربى للسند أواخر القرن الأول الهجرى ، طبقة من الهنود أنفسهم من أصحاب اللسانين ، يجيدون السنسكريتية لغتهم والعربية التى كتبوا بها (ضحى الإسلام لأحمد أمين أول ٢٤٢ — ٤٤) .

* * *

والنسخة التى كتبها أبو الريحان البيرونى بنفسه من هذا الكتاب عام ٤٢٣ هـ قد ضاعت وكانت تقع فى ٧٠٠ ورقة . وأقدم نسخة خطية موجودة له يرجع تاريخها إلى عام ٥٥٤ هـ / ١١٥٩ م أى بعد مرور ١٢٩ عاماً على تأليف البيرونى له .

وقام بنشر هذا السفر العظيم المستشرق الألمانى إدوارد ساخاو عام ١٨٨٧ م بعد أن اطّلع على كافة

النسخ الخطية الموجودة له ، وبذل جهداً علمياً كبيراً فى تحقيقه ، كما قدم له بمقدمة طويلة قيمة .

ويقع الكتاب المطبوع فى ٣١٨ صفحة من الحجم الكبير (٢٩ × ٢٣ سم) . هذا عدا فهرسه فى ٤٦ صفحة ؛ وقد ظهرت له طبعات متعددة من بعد ذلك .

والبيرونى فى كتابه هذا يصطنع أسلوباً رياضياً خالصاً حين يعمد إلى التركيز الشديد فى كتابته مع ميل إلى استخدام قصار الجمل تنبنى الواحدة منها على سابقتها فى المعنى وترتبط بها ارتباطاً وثيقاً فى تسلسل يبلغ به إلى ما يريد أن يقرره .

وما يصادف القارئ عنده من عبارات قد يغلب عليها الغموض ، تراها لا تلبث أن ينجلى لنا ما تحمله من المعانى حين نمضى فى المطالعة والاستقراء ، « ولكنه ربما يجئ فى بعض الأبواب ذكر مجهول وتفسيره آت فى الذى يتلوه » (ص ١٣) .

وتوفيق البيرونى الكبير فى تحديده لمدلولات كثير من المصطلحات والعبارات السنسكريتية فى أضيق حيز بأوضح لفظ عربى مبين فى الغالب ، إنما يقوم دليلا واضحاً على أنه كان صاحب ثروة لغوية عربية غزيرة مكينة من الألفاظ والتعاريف على السواء .

وبمقارنة أسلوب البيرونى فى هذا الكتاب بما سبقه فى كتبه الأخرى يتضح جلياً تطور إنشائه إلى الأفضل دواماً على مدار الزمن .

* * *

يقسم البيرونى كتابه إلى ثمانين باباً أولها : « فى ذكر أحوال الهند وتقريرها أمام ما نقصده من الحكاية عنهم » ، وآخرها : « فى ذكر أصولهم (أى الهنود) المدخلية إلى أحكام النجوم والإشارة إلى طرقهم فيها » .

وهو فى هذه الأبواب الثمانين يتحدث عن معتقدات الهنود وشرائعهم وأحكام الفروض والعبادات عندهم كالمواريث والصيام والقرابين والكفاءات والحج والصدقات والأعياد والعقوبات والمباح من المطاعم والمشارب والمحظور منها .

كما يذكر نظام الطبقات فى مجتمعهم وأحكامه ، ويشير إلى ما عندهم من أنواع الخطوط وطرائق الكتابة ويعرفنا بتراثهم فى النحو والشعر وسائر العلوم ، ويصف لنا بلادهم ومعالمها الجغرافية .

ويسوق إلينا كذلك حديثاً طويلا عن علم الفلك عند الهنود يفصل فيه صورة الأرض عندهم وأصناف الشهور والسنين وتحليلها إلى الأيام مع ذكر مقياس الليل والنهار فى حسابهم . ويشير إلى أحكام الكواكب والنجوم ومراصدها عندهم ، ومقالاتهم فى المد والجزر والكسوف والخسوف .

وهو لا يكتفى بالحكاية فى كل باب من هذه الأبواب وإنما يقارن كذلك بين ما عند الهنود وما عند غيرهم من الأمم ويفيض فى ذلك إفاضة عالم متمكن غزير المادة آخذ بالأطراف .

فهو حين يقول بأن الهنود « يعتقدون فى الأرض أنها أرضهم وفى الناس أنها جنسهم وفى الملوك أنهم رؤساؤهم وفى الدين أنه نحلتهم وفى العلم أنه ما معهم » (ص ١٠) ، يأبى إلا أن يكون منصفاً فى بحثه ، برغم ما لحظه من تعاليهم عليه ، فيقرر بأن أوائلهم لم يكونوا بهذه المثابة من الغفلة « فهذا براهمن أحد فضلائهم يقول بأن اليونانيين وهم أنجاس لما تخرجوا فى العلوم وأنافوا فيها على غيرهم وجب تعظيمهم » .

وعلة اعتبار الهنود من سواهم أنجاساً هى كما يراها البيرونى لقتلهم البقرة وذبحها وأكلهم للحمها . ويقول بأن تقديسها كان أصلا بوصفها حيوانا نافعا يخدم فى الأسفار وينقل الأثقال ويفيد فى الفلاحة والزراعة ويمد الناس بألبانه . ثم يشير من بعد ذلك (ص ٢٧١) إلى حكيم آخر من حكماء الهند عارض هذه التفرقة « قال باسديو فى طلب الخلاص : إن العاقل قد تساوى عنده

البرهمى وچندال ، والصديق والعدو ، والأمين والخائن ، والحية وابن عرس . فان كان العقل هو الذى سوى فالجهل هو الذى فضّل وفضل » .

ويقول فى ذلك ، على ضوء مشاهداته ، بأن الإماتة فى الأصل محظورة عليهم بالإطلاق ولكن الناس يقرمون إلى اللحم وينبذون فيه وراء ظهورهم كل أمر ونهى .

ويقسم الهنادكة الخلائق إلى أجناس ثلاثة هى على ما ورد فى كتاب سانك (ص ٤٣) : الروحانيون فى الأعلى ، والناس فى الوسط ، والحيوانات فى الأسفل .

ولا يكتفون بذلك حتى يسلكوا أبناء جنسهم فى طبقات أربع علياها البراهمة ، وهم نقاوة الجنس ولذلك صاروا عندهم خيرة الإنس ، والطبقة التى تتلوهم هى كشتر (الأكشترية) ورتبتهم عن رتبة البراهمة غير متباعدة جداً ، ودونهم بيش (الويشية) ، وهاتان الطبقتان الأخيرتان متقاربتان . وأحط هذه الطبقات هى شودر .

ويقول باسديو إن البرهمن يجب أن يكون وافر العقل بادى النظافة مقبلا على العبادة مصروف الهمة إلى الديانة .

وأن يكون كشتر شجاعاً ذلق اللسان مهيباً فى القلوب غير مبال بالشدائد . وأن يكون بيش مشتغلا بالفلاحة واقتناء السوائم والتجارة . وأن يكون شودر مجتهداً فى الخدمة والتملق متحبباً إلى كل واحد بها . وبهذا تضم هذه الطبقات رجال الدين ، ورجال الحرب ، والتجار وأصحاب الأراضى ، والصناع والعمال .

أما من عداهم فهم المنبوذون وهم هادى ودوم وچندال وكلهم جنس واحد ، ويتعاطون أدنأ الحرف : وهم يرجعون إلى اختلاط بعض أبناء الطبقات الأولى الثلاث بالشودر ، وهم بذلك منفيون منحطون (ص ٤٩ ، ٥٠) ، لا يطاعمهم غيرهم أو يخالطهم .

ويفيض البيرونى من بعد ذلك فى بيان المراحل التى يمر بها البرهمن فى حياته الدينية وما يمارسه من الطقوس وما يجوز له أن يشتغل به من الأعمال وما لا يليق ، وينتقل من بعد ذلك إلى شرح أحوال كشتر وبيش . أما شودر فيذكر عنه بأنه للبرهمن بمثابة عبد يتصرف فى أشغاله ويخدمه . وكل عمل يخص البرهمن من التسابيح وقراءة بيذ (الكتاب المقدس) وقرابين النار فهو محظور عليه ، حتى أنه وبيش إن صح عليهما قراءة بيذ رفعهما البراهمة إلى الوالى فقطع لسانهما . أما ذكر الله وعمل البر والصدقة فهو غير ممنوع عنه . وكل من تعاطى ما ليس لطبقته أن يتعاطاه كالبرهمن التجارة وشودر الفلاحة فهو آثم (ص ٢٦٧ — ٢٧١) .

وهو فى حديثه عن معتقدات الهند يذكر ما يروج عندهم فى ذلك من الخرافات والأوهام ، ويشير إلى فرقة الشمنية عندهم وكانت على بغضاء شديدة للبراهمة ، وقد انتشرت تعاليمها فى خراسان وفارس والعراق وبلغت الشام ، حتى ظهر زرادشت ودعا بالمجوسية فاحتلت مكانها . ويقرر بوضوح لا لبس فيه اعتقاد الهنود فى وحدانية الله ويسرد علينا آراءهم فى صفاته جل جلاله . ويبدو التوحيد عندهم جلياً فيما ينقله عنهم حين يحكى عن ندوة لبعض حكمائهم سأل فيها أحد ملوكهم عن معنى من المعانى الإلهية ، فيجيبه الحكيم ، نقلا عن براهمن « إن الله هو الذى لا أول له ولا آخر لم يتولد عن شىء ولم يولد شيئاً إلا ما يمكن أن يقال أنه هو ولا يمكن أن يقال أنه غيره ، وهل يمكن إدراك معرفته حتى يعبد حق عبادته إلا بالاشتغال به عن الدنيا بالكلية وإدامة الفكر فيه » (ص ٣٨) .

ويبسط لنا البيرونى نظرية التناسخ عند الهنود بسطاً كافياً فى كتابه ، وينقل عنهم أن الأرواح غير مائتة ولا متغيرة وإنما تتردد فى الأبدان . ويذكر لنا كذلك أن مانى حين نفى من إيران فدخل أرض الهند نقل

التناسخ منهم إلى نحلته ، وأن الصوفية قد تأثروا بهذه النظرية إذ يجيزون حلول الحق فى الأمكنة كالسماء والعرش والكرسى ومنهم من يجيزه فى كل الكائنات (ص ٢٤ — ٢٧) .

كما يحدد التعريف بالصوفية فى رأيه فيقول فى ص ١٦ «السوفية وهم الحكماء ، فان سوف باليونانية الحكمة وبها سمى الفيلسوف بيلا سوبا أى محب الحكمة ، ولما ذهب فى الإسلام قوم إلى قريب من رأيهم سموا باسمهم ، ولم يعرف اللقب بعضهم فنسبهم للتوكل إلى الصُّفة وأنهم أصحابها فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم صحّف بعد ذلك فصيّر من صوف التيوس»

وينقل البيرونى إلينا قدراً من عادات الهنادكة ورسومهم القديمة فيقول بأنه لا يفرق بين الزوجين إلا الموت إذ لا طالق لهم ، وأن القانون فى النكاح عندهم أن الأجانب أفضل من الأقارب ، وما كان أبعد فى النسب من الأقارب فهو أفضل . ومنهم من يرى عدة النساء بحسب الطبقات حتى يكون للبرهمن أربعاً ولكشتر ثلاثاً ولبيش اثنتين ولشودر واحدة . ويجوز لكل واحد من أهل الطبقات أن يتزوج فى طبقته وفيما دونها ، ولا يحل له أن يتزوج من طبقة فوق طبقته ، ويكون الولد منسوباً إلى طبقة الأم (٢٧٨) .

والمرأة إذا مات عنها زوجها فليس لها أن تتزوج ، وتُقبل على حرق نفسها خوف الزلل ما لم يكن لها ولد يتكفل بصيانتها وحفظها .

والأصل فى المواريث عندهم سقوط النساء منها ما خلا الإبنة فان لها ربع ما للابن ، وجهازها من ميراثها . أما الزوجة فان آثرت الحياة ولم تحرق نفسها كان على الوارث رزقها وكسوتها ما دامت (ص ٢٨١)

والدعاوى عندهم تسمع بالكتاب المكتوب على المدعى عليه ، فان لم يكن فالشهود بغير كتاب ، ولا أقل فى عددهم من أربعة فما فوقها ، إلا أن تكون عدالة الشاهد مقررة عند القاضى فيجيزها ويقطع بشهادة ذلك الواحد من غير أن يترك التجسس فى السر والاستدلال بالعلامات فى العلانية وقياس بعض ما يظهر له إلى بعض والاحتيال لاستنباط الحقيقة ، فان عجز المدعى عن البينة لزم المنكر اليمين (٢٧٩) .

والبيرونى حين يتحدث عما عند الهنود من تراث ضخم يناقش تعريفهم للعلم بأنه هو طريق الخلاص ، وما يتبع ذلك من قولهم بأن الأوجه التى يحصل بها العلم للعالم هى ثلاثة : أحدها إلهام بلازمان مع الولادة والمهد ، والثانى بالهام بعد الولادة ، والثالث بتعلم وبعد زمان كسائر الناس . وقولهم كذلك أن الوصول إلى الخلاص بالعلم لا يكون إلا بالنزوع عن الشر (ص ٣٦)

وهو يحصى لنا كذلك الكثير من كتبهم فى الفلك والرياضة والنجوم وما عندهم من آلات دقيقة ومقاييس وموازين وما يستخدمونه من أدوات فى الكتابة .

هذا كما يقارن بين عروضهم والعروض العربى ويذكر أنواع الشعر عندهم .

ويلاحظ أن الهنود يسمون الشىء الواحد بأسماء كثيرة جداً ، والمثال الشمس فانهم سموها بألف اسم ، على ما ذكر ، كتسمية العرب الأسد بقريب من ذلك ، وهو عنده من أعظم معايب اللغة (ص ١١٢) .

ويشير فى حديثه عن كتبهم أنهم يرون كتابتها نظماً فى الغالب ، إذ يرون أن المنثور أقبل للفساد من المنظوم فضلا عن أن ذلك مما يسهل استظهارها (ص٦١ ، ٦٦) . (وبهذا يكون العرب قد قلدوا الهنود فى ذلك)

ويتحدث البيرونى حديثاً مستفيضاً عن ملامح الهند الجغرافيه فيصف أنهارها ومخارجها وممراتها ، وجبالها وما يرويه الناس من أقاصيص عنها ، ويرسم حدود ممالكها وما بها من مدن ، ويحدد لكل مكان يذكره موقعه الجغرافى وموضعه على خطوط الطول والعرض .

ويتوهم بعض المستشرقين خطأه فى تحديد مواقع أماكن بعينها ، ومن ذلك ما ذكـره Elliot فى الجزء الثانى من كتابه فى تاريخ الهند (ص ٣) حين يقول بأن البيرونى يذكر تانيشر فى الدوآب مما يدل على أنه لم يسافر إلى الشرق من لاهور .

ولم يفطن هذا المؤرخ إلى أن بالهند كثيراً من الأماكن التى تشترك فى اسم واحد . من ذلك حيدر آباد نجدها مدينة فى الدكن وأخرى فى السند ، ثم الله آباد وجلال آباد وتعرف بهذه الأسماء جملة مدن فى جهات متفرقة بشبه القارة الهندية .

النموذج الأول

الباب الثانى « فى ذكر اعتقادهم فى الله سبحانه » .

إنما اختلف اعتقاد الخاص والعام فى كل أمة بسبب أن طباع الخاصة ينازع المعقول ويقصد التحقيق فى الأصول ، وطباع العامة يقف عند المحسوس ويقنع بالفروع ولا يروم التدقيق وخاصة فيما افتنت فيه الآراء ولم يتفق عليه الأهواء . واعتقاد الهند فى الله سبحانه أنه الواحد الأزلى من غير ابتداء ولا انتهاء ، المختار فى فعله ، القادر الحكيم الحى المحيى المدبر المبقى الفرد فى ملكوته عن الأضداد والأنداد ، لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شىء .

ولنورد فى ذلك شيئاً من كتبهم لئلا تكون حكايتنا كالشىء المسموع فقط . قال السائل فى كتاب پاتنجل : من هذا المعبود الذى يُنال التوفيق بعبادته ؟ قال المجيب : هو المستغنى بأزليته ووحدانيته عن فعل لمكافأة عليه براحة تؤمل أو ترتجى ، أو شدة تخاف وتتقى ، والبرئ عن الأفكار لتعاليه عن الاضداد المكروهة والأنداد المحبوبة . والعالم بذاته سرمداً إذ العلم الطارئ يكون لما لم يكن بمعلوم وليس الجهل بمتجه عليه فى وقت ما أو حال .

ثم يقول السائل بعد ذلك : فهل له من الصفات غير ما ذكرت ؟

ويقول المجيب : له العلو التام فى القدر لا المكان فانه يجل عن التمكن ، وهو الخير المحض التام الذى يشتاقه كل موجود ، وهو العلم الخالص عن دنس السهو والجهل .

قال السائل : أفتصفه بالكلام أم لا ؟

قال المجيب : إذا كان عالماً فهو لا محالة متكلم .

قال السائل : فان كان متكلماً لأجل علمه فما الفرق بينه وبين العلماء الحكماء الذين تكلموا من أجل علومهم ؟ قال المجيب : الفرق بينهم هو الزمان ، فانهم تعلموا فيه وتكلموا بعد أن لم يكونوا عالمين ولا متكلمين ، ونقلوا علومهم إلى غيرهم . فكلامهم وإفادتهم فى زمان ، وإذ ليس للأمور الإلهية بالزمان اتصال فالله سبحانه عالم متكلم فى الأزل ، وهو الذى كلم براهم وغيره من الأوائل على أنحاء شتى ، فمنهم من ألقى إليه كتاباً ، ومنهم من فتح لواسطة إليه باباً ، ومنهم من أوحى إليه فنال بالفكر ما أفاض عليه .

قال السائل : فمن أين له هذا العلم ؟

قال المجيب : علمه على حاله فى الأزل ، وإذ لم يجهل قط فذاته عالمة لم تكتسب علماً لم يكن له ، كما قال فى بيذ الذى أنزله على براهم : « احمدوا وامدحوا من تكلم ببيذ وكان قبل بيذ » .

قال السائل : كيف تعبد من لم يلحقه الاحساس ؟

قال المجيب : تسميته تثبت إنيته فالخبر لا يكون إلا عن شىء والاسم لا يكون إلا لمسمى ، وهو إن غاب عن الحواس فلم تدركه عقلته النفس وأحاطت بصفاته الفكرة ، وهذه هى عبادته الخالصة ، وبالمواظبة عليها ينال السعادة ؛ فهذ كلامهم فى هذا الكتاب المشهور .

وفى كتاب كيتا ، وهو جزء من كتاب بهارث ، فيما جرى بين باسديو وبين أرجن ، أنى أنا الكل من غير مبدأ بولادة ومنتهى بوفاة ، لا أقصد بفعلى مكافأة ولا أختص بطبقة دون أخرى لصداقة أو عداوة ، قد أعطيت كلا من خلقى حاجته فى فعله ، فمن عرفنى بهذه الصفة وتشبه فى إبعاد الطمع عن العمل انحل وثاقه وسهل عتاقه وخلاصه .

وهذا كما قيل فى حد الفلسفة أنها التقيل (التعقل) بالله ما أمكن ، وقال فى هذا الكتاب : أكثر الناس يلجئهم الطمع فى الحاجات إلى الله ، وإذا حققت الأمر لديهم وجدتهم من معرفته فى مكان سحيق ، لأن الله ليس بظاهر لكل أحد يدركه بحواسه فلذلك جهلوه ، فمنهم من لم يتجاوز فيه المحسوسات ومنهم من إذا تجاوزها وقف عند المطبوعات ، ولم يعرفوا أن فوقها من لم يلد ولم يولد ولم يحط بعين ، إنيته علم أحد وهو المحيط بكل شىء علماً .

ويختلف كلام الهند فى معنى الفعل ، فمن أضافه إليه كان من جهة السبب الأعم ، لأن قوام الفاعلين إذا كان به كان هو سبب فعلهم فهو فعله بواسطتهم ، ومن أضافه إلى غيره فمن جهة الوجود الأدنى .

وفى كتاب سانك قال الناسك : هل اختُلف فى الفعل والفاعل أم لا ؟

قال الحكيم : قد قال قوم أن النفس غير فاعلة والمادة غير حية فالله المستغنى هو الذى يجمع بينهما ويفرق فهو الفاعل ، والفعل واقع من جهته بتحريكهما كما يحرك الحى القادر الموات العاجز .

وقال آخرون إن اجتماعهما بالطباع فهكذا جرت العادة فى كل ناش بال .

وقال آخرون الفاعل هو النفس لأن فى بيذ أن كل موجود فهو من يورش .

وقال آخرون الفاعل هو الزمان فان العالم مربوط به رباط الشاة بحبل مشدود بها حتى تكون حركتها بحسب انجذابه واسترخائه . وقال آخرون ليس الفعل سوى المكافأة على العمل المتقدم . وكل هذه الآراء منحرفة عن الصواب ، وإنما الحق فيه أن الفعل كله للمادة لأنها هى التى تربط وتردد فى الصور وتخلى ، فهى الفاعلة وسائر ما تحتها أعوان لها على إكمال الفعل ، وخلو النفس عن القوى المختلفة هى غير فاعلة .

فهذا قول خواصهم فى الله تعالى سبحانه ويسمونه ايشفر أى المستغنى الجواد الذى يعطى ولا يأخذ ، لأنهم رأوا وحدته فى المحضة ووحدة ما سواه بوجه من الوجوه متكثرة ، ورأوا وجوده حقيقياً لأن قوام الموجودات به ، ولا يمتنع توهم ليس فيها مع أيس فيه ، كما يمتنع توهم ليس فيه مع أيس فيها .

ثم إن تجاوزنا طبقة الخواص من الهند إلى عوامهم اختلفت الأقاويل عندهم ، وربما سُمجت كما يوجد مثله فى سائر الملل ، بل وفى الإسلام ، من التشبيه والأجبار وتحريم النظر فى شىء وأمثال ذلك . مثاله أن بعض خواصهم يسمى الله تعالى نقطة ليبرئه بها عن صفات الأجسام ، ثم يطالع ذلك عاميهم فيظن أنه عظمه بالتصغير ، ولا يبلغ به فهمه إلى تحقيق النقطة فيتجاوز سماجة التشبيه والتحديد بالتعظيم إلى قوله أنه بطول اثنى عشر إصبعاً فى عرض عشر أصابع ، تعالى عن التحديد والتعديد . ومثل ما حكيناه من إحاطته بالكل حتى لا يخفى عليه خافية فيظن عاميهم أن الإحاطة تكون بالبصر والبصر بالعين والعينان أفضل من العور فيصفه بألف عين عبارة عن كمال العلم ، وأمثال هذه الخرافات الشنعة عندهم موجودة وخاصة فى الطبقات التى لم يسوغ لهم تعاطى العلم على ما يجئ ذكرهم فى موضعه .

النموذج الثانى

من الباب السادس عشر « فى ذكر معارف من خطوطهم وحسابهم وغيره وشىء مما يستبدع من رسومهم » .

إن اللسان مترجم للسامع عما يريده القائل فلذلك قصر على راهن الزمان الشبيه بالآن ، وأنى كان يتيسر نقل الخبر من ماضى الزمان إلى مستأنفه على الألسنة وخاصة عند تطاول الأزمنة لولا ما أنتجته قوة النطق فى الإنسان من إبداع الخط الذى يسرى فى الأمكنة سريان الرياح ومن الأزمنة إلى الأزمنة سريان الأرواح فسبحان متقن الخلق ومصلح أمور الخلق .

وليس للهند عادة بالكتابة على الجلود كاليونانيين فى القديم . فقد قال سقراط حين سئل عن تركه تصنيف الكتب : لست بناقل العلم من قلوب البشر الحية إلى جلود الضأن الميتة . وكذلك كانوا فى أوائل الإسلام يكتبون على الأدم كعهد الخيبريين من اليهود وككتاب النبى صلى الله عليه إلى كسرى ، وكما كتبت مصاحف القرآن فى جلود الظباء والتوراة تكتب فيها أيضاً . فقوله تعالى ، يجعلونه قراطيس ، أى طوامير ، فان القرطاس معمول بمصر من لب البردى يبرى فى لحمه . وعليه صدرت كتب الخلفاء إلى قريب من زماننا إذ ليس ينقاد لحك شىء منه وتغييره بل يفسد به . والكواغذ لأهل الصين ، وإنما أحدث صنعتها فى سمرقند سبى منهم ثم عمل منه فى بلاد شتى فكان سداداً من عوز . فالهند أما فى بلادهم الجنوبية فلهم شجر باسق كالنخل والنارجيل ذو ثمر يؤكل وأوراق فى طول ذراع وعرض ثلاث أصابع مضمومة يسمونها تادى ويكتبون عليها ، ويضم كتابهم منها خيط ينظمها من ثقبه فى أوساطها فينفذ فى جميعها . وأما فى واسطة المملكة وشمالها فانهم يأخذون من لحاء التوز شجر الذى يستعمل نوع منه فى أغشية الفسى ويسمونه بهوج فى طول ذراع وعرض أصابع ممدودة فما دونه ، ويعملون به عملا كالتدهين والصقل يصلب به ويتملس ، ثم يكتبون عليها . وهى متفرقة يعرف نظامها بأرقام العدد المتوالى ، ويكون جملة الكتاب ملفوفة فى قطعة ثوب ومسدودة بين لوحين بقدرهما ، واسم هذا الكتاب پوتى ، ورسائلهم وجميع أسبابهم تنفذ فى التوز أيضاً .

فأما خطهم فقد قيل فيه أنه كان اندرس ونسى ولم يهتم له أحد حتى صاروا أميين ، وزاد ذلك فى جهلهم وتباعدهم عن العلم حتى جدد بياس بن براشر حروفهم الخمسين بالهام من الله . واسم الحرف أكثر ، وذكر بعضهم أن حروفهم كانت أقل ثم تزايدت وذلك ممكن بل واجب . فقد كان آسيذس صوّر لتخليد الحكمة ستة عشر رقماً وذلك فى زمان تسلط بنى إسرائيل على مصر ، ثم قدم بها قيمش واغنون إلى اليونانيين فزادوا فيها أربعة أحرف واستعملوها عشرين ، وفى الأيام التى فيها سُم سقراط زاد سمونون فيها أربعة أخرى فتمت عند أهل أثينية حينئذ أربعة وعشرين وذلك فى زمان اردشير بن دارا بن اردشير بن كورش على رأى مؤرخى أهل المغرب . وإنما كثرت حروف الهند بسبب إفراد صورة للحرف الواحد عند تناوب الإعراب إياه والتجويف والهمزة والامتداد قليلا عن مقدار الحركة ، والحروف فيها ليست فى لغة مجموعة وإن تفرقت فى لغات وخارجة من مخارج قلما تنقاد لإخراجها آلاتنا فانها لم تعتده بل ربما لا تشعر أسماعنا بالفرق بين كثير من اثنين منها .

وكتابتهم من اليسار نحو اليمين كعادة اليونانيين ، لا على قاعدة ترتفع منها الرؤوس وتنحط الأذناب كما فى خطنا ، ولكن القاعدة فوق وعلى استقامة السطر لكل واحد من الحروف ، ومنها ينزل الحرف وصورته إلى أسفل ، فان علا القاعدة شىء فهو علامة نحوية تقيم إعرابه .

فأما الخط المشهور عندهم فيسمى سدماترك وربما نسب إلى كشمير ، فالكتابة فى أهلها ، وعليه يعمل فى بارانسى ، وهو وكشمير مدرستا علومهم ، ثم يستعمل فى مدديش أعنى واسطة المملكة ، وهى ما حول كنوج فى جهاته ، ويسمى أيضاً آرجافرت ،

وفى حدود ما لوا أيضاً خطر يسمى ناكر لا يفاصل ذلك إلا بالصور فقط . ويتبعه خط يسمى أردناكرى أى نصف ناكر لأنه ممزوج منهما ، ويكتب به فى بهاتيه وبعض بلاد السند . وبعد ذلك من الخطوط ملقاى فى ملقشو فى جنوب السند نحو الساحل وسيندب فى بهنوا ، وهى المنصورة ، وكرنات فى كرنات ديش التى منها الفرقة المعروفون فى العساكر بكنره ، وانترى فى انترديش ، ودروى فى درور ديش ولارى فى لارديش وكورى فى بورب ديش ، أى ناحية المشرق ، وبيكشك فى أودنپور هناك وهو خط البُد .

ومفتتح الكتب عندهم بأوم الذى هو كلمة التكوين كافتتاحنا باسم الله تعالى (وصورته ليست من حروفهم) وإنما هى صورة مفردة له للتبرك مع التنزيه كاسم الله عند اليهود فانه يكتب فى الكتب ثلاث ياءات عبرية ، وفى التوراة يهوه بالكتابة وأذونى باللفظ وربما قيل يه فقط ، ولا يكتب الاسم الملفوظ به وهو أذونى . وليسوا يجرون على حروفهم شيئاً من الحساب كما نجريه على حروفنا فى ترتيب الجمل . وكما أن صور الحروف تختلف فى بقاعهم كذلك أرقام الحساب وتسمى أنك . والذى نستعمله نحن مأخوذ من أحسن ما عندهم ، ولا فائدة فى الصور إذا ما عرف ما وراءها من المعانى . وأهل كشمير يرقمون الأوراق بأرقام هى كالنقوش أو كحروف أهل الصين لا تعرف إلا بالعادة وكثرة المزاولة ، ولا تستعمل فى الحساب على التراب .